محمد بن أحمد[1]

ابن الحسن بن جردة، أبو عبدالله، البَيِّع البغدادي، أصله من عُكْبَرا، كان يتردَّد منها إلى بغداد يبيع الخام، وكان رأسُ ماله عشر نصافي، فبارك الله له، ووسَّع عليه، وأثرى حتى صارت بضاعتُه ثلاثَ مئة ألف دينار، وزوَّجه الشيخُ الأجلُّ أبو منصور ابنتَه، وكان جليلاً، نبيلاً، جواداً، سمحاً، مُحبًّا للعلماء، وما خرج عن ملبوس التجار، ولا غيَّر زيَّه، وبنى مسجده بالرَّيحانِيّين، وهو الذي قال فيه ابن البياضي: [الخفيف]

حبَّذا مسجدٌ بنهر مُعلَّى

الأبيات

وخَتَم في هذا المسجد مئةَ ألفٍ في مئةِ ألفِ خَتمة على مدى الأنفاس، وكانت صدقاتُه دارَّةً على الفقراء والمساكين والأرامل، وكانت أكثرُ صدقاته سِرًّا على أرباب البيوت، وكانت دارُه بباب المراتب بمقدار الجامع فيها ثلاثون داراً، ولها بابان، على كلِّ باب مؤذن، إذا أذَّن أحدُهما لا يسمعه الآخر.

ولمَّا دخل البساسيري بغداد ونهب دارَ الخليفة خرجت خاتون زوجةُ القائم إلى دار ابن جردة، فخدمها وأحسنَ إليها، وحمل إلى قريش عشرةَ آلاف دينار حتى حمى داره من النهب، فلمَّا اجتمعت خاتون بالسلطان طُغْرُلْبَك حكَتْ له ما فعل ابنُ جردة معها، فلمَّا دخل طُغْرُلْبَك بغداد جاء بنفسه إلى دار ابن جردة شاكراً له.

وكانت وفاتُه في ذي القعدة، ودُفن في التربة الملاصقة لتربة أبي الحسن القزويني الزاهد في الحربية رحمة الله عليه.

السنة السابعة والسبعون والأربع مئة

فيها في المُحرَّم ورد الخبرُ بأن تُتُش ورد من دمشق إلى أنطرطوس، فحصرها وأخذها من ابن ملاعب، وسلَّمها إلى جلال الملك بن عمار صاحب طرابلس، وأخذ منه مالاً، وكان قد سأله ذلك وعاد إلى دمشق.

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٣٢-٢٣٣.

وفي صفر وصل الحاجُّ سالمين مع خُمارتِكين الحسباني، وذكروا حُسْنَ سيرته.

وفي يوم الاثنين منتصف ربيع الأول كانت وقعةٌ عظيمةٌ على باب آمد بين فخر الدولة ابن جَهير ومسلم بن قريش.

ذكر السبب:

كان ابن جَهير قد سار إلى ديار بكر لفتحها، فبلغه أن مسلم على قصده، [ومنعه][(١)]، فكتب إلى السلطان يلتمس منه عسكر الدفعة، فتقدم إلى أُرْتُق بك يجمع التركمان والعرب من فخر الدولة، ففعل، وسار مسلم إلى ابن جَهير، فأرسل إلى أُرتُق بك، فجاءه بجمع كبير من التركمان، ووقعت المراسلة، وكلٌّ أشار على مسلم بالرجوع إلى أعماله، فقال: ترجعون مرحلةً إلى ورائكم وأرجع أنا؛ لئلا يُقال: إنَّني منهزماً عدتُ، فامتنع أُرْتُق بك وقال: أنا لا أردُّ رايات السلطان على عقبها. وعرف التركمان ما يجري فقالوا: نحن جئنا من البلاد البعيدة لطلب النهب، وهؤلاء يسارعون في الصلح؟!.

وركبوا نصف الليل من غير إعلامٍ لأُرْتُق بك، وأشرفوا يوم الجمعة على العرب، وكانوا أضعاف العرب، فأخذوهم باليد من غير طعن ولا ضرب، واحتاطوا بهم، ولم يكن لمسلم سبيلٌ إلى الهرب، فطلب صوب[(٢)] آمِد، وتبعه ابنُ مروان وجماعةٌ من أصحابهما فدخلوا آمد، وبقوا يومَهم وليلتَهم لم يَطْعَموا طعاماً، ولا شربوا شراباً، وكذا خيلُهم، وأشرف ابنُ جَهير وأُرْتُق على القوم ضاحي النهار وقد استولى التركمان على الحِلل والأموال والمواشي، وكان ممَّا [لايُحصى و][(٣)] لا يُحَدُّ ولا يُحصر، وأخذوا النساء وفضحوهنَّ، وربطوا أمراء بني عقيل بالحبال، وباعوهم بالقراريط، وأشعل التركمانُ عشرةَ آلاف رمح تحت القدور، وجرى على العرب ما لم يجرِ عليهم قبلُ، وسبَوا نساءهم، وبلغ الفرسُ الجيِّدُ ديناراً، وكذا الجملُ والرأسُ الغنمِ نصفَ قيراط، والعبيدُ والإماءُ من دينار إلى دينارين، وما سوى ذلك فما اشتُري ولا بِيع،

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) في (خ): صواب، والمثبت من (ب).

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

وراسل مسلم أُرْتُق بك وقال: لمثل هذا اليوم خبأتُكَ، ولمثله تُستَحبُّ الصنيعةُ، وأُريد أن تمُنَّ عليَّ بنفسي. وبذل له مالاً أرغبه فيه، فأجابه، وبعث ابنُ جَهير إلى أُرْتُق بك يقول: قد حصلت بنو عقيل في أيدي التركمان، ويجب أن تجمعَهم وتُنفِذَهم إلى السلطان، وتُقيم على هذا الإنسان ـ يعني مسلم بن قريش ـ وتستنزله، وقد ملكتُ الأرض إلى مصر. فقال أُرْتُق: هذا أمرٌ ما إليك منه قليل ولا كثير، وأنا صاحب الحرب، وليس عادتُنا مع من نأسره أن نحبسه، بل نبيعه ونُطلِقُه.

وكانت نيةُ أُرْتُق بك مع السلطان غيرَ مستقيمة، فأنفذ ابنُ جَهير إليه يقول: إن السلطان أنفذ لي شحنةً معي وجنداً بين يدي يفعلون ما أراه، وكان على آمد، فغضب أُرْتُق بك، ورحل من وقته، وذلك في اليوم الثالث من الوقعة، وتبعه أكثرُ التركمان، وقصد سنجار، وسار ابنُ جَهير ومن معه إلى ميَّافارقين ولم يقدروا على المقام بعد أُرْتُق بك، فخرج مسلم من آمد يوم الأحد لتسع بَقِين من ربيع الأول، ووصل الرقة، وبعث إلى أُرْتُق بك بما كان بذله له وزادَه، وأقام ابنُ جَهير على ميَّافارقين، فاشتدَّ الغلاءُ، وراسل أهلَها وأهلَ آمد، فهمُّوا بفتح الأبواب، وعلم ابنُ مروان، فقبض عليهم، وبطل ذلك التدبير، ومضى ابنُ جَهير إلى أخلاط، وعاد مَنْ معه إلى العراق، وكتب إلى السلطان يشكو أُرْتُق بك، وكان اتصل بالسلطان ما جرى، وأن مسلماً في آمد محصورٌ، ولم يشُكَّ في أخذه، فندب عميد الدولة لحرب الجزيرة، وأخذ مسلم، وردَّ إليه أمر حلب والرحبة، وبعث معه خُمارتِكين صوب الحاجب وجماعةٍ من الأتراك، وكُوتِبَ أُرْتُق بك بموافقته، وسار من أصفهان، وبلغه في الطريق خلاصُ مسلم، فكتب إلى السلطان يخبره، فسار السلطان يريد الموصل، وسار أُرْتُق بك من سنجار إلى الموصل، فالتقى عميدَ الدولة، وكان قد مرض بدَقوقا، ونزلا بإزاء الموصل، وراسل عميدُ الدولة أهلَها أن يفتحوا للسطان الباب ويطيعوه، فقالوا: إذا حضر السلطان سلَّمنا إليه، وجاء السلطان، فخرج إليه نُوَّاب مسلم [وأجابوه][1] وحاموه وأطاعوه، وقالوا: أمرَنا صاحبُنا أن لا نُغلق في وجهك باباً. فأعجبه ذلك، وأمَّنهم، ودخل إليها، وأقام أياماً.

(١) مابين حاصرتين من (ب).

وفي جمادى الأولى توفي سرهنك ساوتكين الحاجب، وخلف ألفي ألف دينار وخمسة عشر ألف ثوب، منها تسعة آلاف ديباج رومي، وخمسة آلاف رأس خيل، وألف جمل، وثلاثين ألف رأس غنم، سوى الضياعات والأسلحة والأمتعة، وجاء للسلطان خبرٌ من ناحية أخيه تُتُش، فرأى إعادة مسلم إلى بلاده، فأرسل إليه أبا بكر بن نظام الملك، وكان نازلاً مقابل الرحبة، فتوثَّق به، وعاد به إلى السلطان، فخلع عليه وأعاده إلى أعماله، ورجع إلى أصفهان في الرابع والعشرين من رجب.

وفي يوم الخميس سلخ رجب فتح سليمان بن قُتُلْمِش نيقية وهي بلدة بالساحل تضاهي أنطاكية، وجمع ما يليها من طَرَسوس وأذَنة والمِصِّيصة وعين زربة.

وكان الفردوس المتولِّي على أنطاكية من قِبَل ملك الروم قد أساء السيرة، وصادر أرباب الأموال، وقتل من الأحداث خلقاً كثيراً، وقبض على ولد نفسه وحبسه، فكاتب سليمان، وواعده ليلةً بعينها، فجاء في طائفة من التركمان، ففتحوا له الباب، فدخلها واستولى على أموالها وقلعتها، واستولى على الكنيسة وما فيها من الأموال والجواهر، وكان الفردوس قد خرج إلى بعض النواحي، ولم يتعرَّض سليمان للودائع، ثم نادى في عسكره: لا تتعرَّضوا لأحد من النصارى، ولا ينزل أحد في دار أحد، فلم يؤخذ لأحد درهم، وأحبَّته النصارى، وشاع عدلُه فيهم، فعمرت أنطاكية، وعادت أحسن حالاً من جميع البلاد، فبعث مسلم إلى حلب ألفي فارس يحفظها، وأرسل إلى سليمان يقول: للسلطان في كلِّ سنة على أنطاكية مال، فإن كنتَ طائعاً فابعَثْ به إليَّ، وإن كنتَ عاصياً فعرِّفني. فقال: بل أنا السامع المطيع، وقد كتبتُ إلى السلطان أُخبره بهذا الفتح، والمال إنما كان يؤخذ من صاحب أنطاكية على وجه الجزية ونحن مسلمون، ومن جند السلطان، وكانت الرسالة مع ابن الحلزون نائب مسلم بحلب، فقال: ما نعرف إلا المال. وأغلظَ له، فغضب سليمان، وأرسل عسكره، فنهبوا سواد حلب من منبج إلى المعرة، وسَبُوا وساقوا من الجمال والدوابِّ والماشية شيئاً كثيراً، وقصده أرباب النهب، فاعتذر إليهم وقال: ما لي بهذا عادة، وإنما أميركم فعل هذا حيث نَزَّلني منزلة الكفار، ثم تقدَّم بردِّ النَّهبِ عليهم، فردَّ بعضَه، وصونِعَ عن الباقي بشيء يسير.

وقيل: أخذ عن كلِّ دابة ديناراً أو درهماً، وبلغ ابنَ قريش، فسار من منزله بالقابوسية إلى حلب وهو مُخف من العسكر والمال؛ لما جرى عليه وعلى آمد، واتَّفق أنه وقع بين الحنيني الهاشمي مُتقدِّم الأحداث بحلب وبين علي أخي مسلم المقيم بحلب لحمايتها، فأنفذ الهاشميُّ إلى مسلم يشكو منه، وقال في رسالته: قد شاع ما في أنطاكية من العدل والإنصاف، وأخاف أنَّ أهل حلب يريدون ويقصدون ويتوصَّلون إلى تسليم البلد، فقبض مسلم على أخيه واعتقله، وأخذ منه عشرة آلاف دينار، وتتبَّع الهاشميُّ أصحابَه، فقبض عليهم، وشفى فؤاده منهم، وخبُثت نفسُه، فابتاع حصناً يُعرف بحصن أبي قبيس لا يرام، ونقل أمواله وذخائره إليه، وقُتِلَ مسلمٌ في هذه السنة.

وأمَّا السلطان فسار مُجِدًّا في نفر يسير، حتى ورد نيسابور ولَحِقَ به عسكرُه، فوجد أخاه تكش[1] قد أفسد في البلاد، وأخذ وجوه أهل مرو وصادرهم؛ ظناً منه أن السلطان توغَّل في الشام، والتقت طلائع الفريقين، فانهزم تُكش إلى قلعته بعد أن أُسِرَ من أصحابه جماعة، فبعث بهم السلطان إلى أصفهان معتقَلين، وسار وراءه متيمِّماً، وبعث إلى تِرْمِذ مَن انتزعها من يد نُوَّاب[2] تُكش، وراسل إبراهيم بن مسعود صاحب غزنة، وقال: قد عرفتَ ما فعلتُه مع أخي، وأحسنتُ إليه وخرج عليَّ وعصاني، وقد حاصرتُه وما له ميرةٌ إلَّا من بلادك، فإن منعتَه فهو المأمول منك، وإن أعنتَه كنتَ ناكثاً لما بيننا من الأيمان. فأرسل إلى إبراهيم يعتذر ويومئ إلى توسُّط الحال وإصلاحها، ومضى جماعةٌ من الحُجَّاب والأمراء نحو القلعة[3] والسلطان نازلٌ على المضيق، فوقعوا بخيول وجمال، ومواشٍ وغلمان، فأخذوا الجميع، وكان عدداً لا يُحصى، وكان تكش على قرب منهم سكران، فهرب وسَلِم.

وقال محمد بن هلال: وردت الأخبار إلى السلطان لمَّا كان بالموصل أنَّ تكش نزل بمرو الرُّوذ فأخربها ونهب أموالَ أهلها، وانتقل إلى مرو الشاهجان، فخدع أهلَها، ففتحوها له، فأباحها ثلاثةَ أيام، فنهبوا الأموال، وهتكوا الحريم، وشربوا الخمور في

(١) تصحفت في هذا الموضع والموضعين الآيتين في (خ) إلى: تتش، والمثبت من (ب).

(٢) في (خ): من ديوان، والمثبت من (ب).

(٣) في (خ): وأمراء القلعة، والمثبت من (ب).

نهار رمضان بالجامع الأعظم، وفعلوا ما لا يَستحسن الكفارُ فِعْلَه، ثم صادر أربابَ الأموال، وأخرب البلاد، ثم سار إلى سَرَخْسَ، وبها مسعود ناجر التركماني نائب السلطان، وكان تكش مغتاظاً عليه؛ لأنه هزمه مرة بعد مرة، فتحصن منه بقلعة سَرَخْسَ وهي في حصانتها لا تُرام، فنازلها أياماً، وراسله وخدعه ومسعود يقول: كأنك بالرايات السلطانية قد أطلت، فنصب المجانيق وقاتل.

فوصلت الأخبار بوصول السلطان إلى الري، وبلغه ما فعل تكش، فقدَّم بين يديه المقدمات، وبلغه ما اقتضى مسيره بنفسه، وتقدَّم العساكر في خواصِّه، وحمل الكوسات على الجمَّازات، فوصل من الري إلى نيسابور في ستة أيام، وكتب إلى مسعود يقول: إذا سمعت صوت الكؤوس في الوقت الفلاني، فاخرُجْ في عسكرك من أمامهم، ونحن نأتي من ورائهم. فاتَّفق أن طلائع تكش أخذوا الجاسوس، وحملوه إلى تكش، فلما وقف على الكتاب دُهِشَ ورحل من وقته، وحمل ما قدر عليه، وضرب الباقي في النار، وكان شيئاً كثيراً، وجاء إلى مرو، فغلق أهلُها في وجهه الباب، وقاتلوه، وقتلوا من[1] تخلَّف من أصحابه.

ووصلت مقدمات السلطان مع الأمير بُزان إلى سَرَخْسَ، فانضمَّ إليه مسعود، ولحق بهما الأمير بُرْسُق، وساروا يقصُّون أثر تكش ويسارقونه، ولا يقدمون على الهجوم عليه، ووصل إلى بَلْخ، وأقام يستخرج ماله وذخائره، ودنا السلطان منه، فسار إلى قلعة بلخ، واتَّبعه السلطان، [فنزل][2] على مرج قريب من بلخ، فيه عشب كثير، وأطلق الناسُ دوابَّهم فيه، وكان أُرْتُق بك معهم، [فرتبه] على بعض المضايق، وفرَّق الأمراء حول القلعة، وركب السلطان وصَعِد على جبل مشرف عليها، فرأى مكاناً قَوِيَ في خاطره الوصولُ إليها منه.

ووصل رسول صاحب غَزْنة يشفع في تكش، فقال السلطان للرسول: إذا فرغنا من هذا الوجه قصدناكم، فإنَّ صاحبك هو الذي يجسره على العصيان. فقال الرسول:

(١) في (خ): ممن، والمثبت من (ب).

(٢) مابين حاصرتين هنا وفي الموضع الآتي من (ب).

صاحبي يقول: أنا مقيمٌ على العهد الذي بيننا، وقد فرَّغتُ غَزْنة[١] ونقلتُ أهلها وأموالها إلى بلاد الهند، وأعوذُ بالله أن أواجهك أو أحاربك، ألقاك بالخضوع حتى يزول ما وقر في صدرك. فقال السلطان: إنَّا نرفعه من الدخول في[٢] عهد هذا الغلام الجاهل، ولا نؤثر مقاطعته لأجله.

وضاق بجند تكش الأمر، وأشرفوا على الهلاك، وتغيَّروا عليه، فأرسل رسولاً إلى السلطان يخدعه باطناً، ويُجامله ظاهراً، ووصل الرسول إلى نظام الملك، فقال له السلطان: قد خشيتُم أن نردَّ إليه منكم رسولاً أو كتاباً، ولا يتجاسر أحدٌ على خطابه في معناكم. فقال الرسول للنظام: هو قد ألقى إليك مَقاليدَه[٣]، وفوَّض إليك أموره، وحكَّمك فيما تراه. وقال: إن رأيتَ أنني أجيءُ وأطرحُ نفسي عليه جئتُ بعد أن تتوثَّق لي من السلطان، وأنا أُسلِّم إليه القلاع التي في يدي، فإنها سبب الوحشة، ويقرُّ عملي في يدي. فدخل النظام على السلطان وأخبره، فقال: عندي من الأمر أوفى من ذلك وأتمُّ، إن أراد أن أُقِرَّه في بلاده وأدعَ قلاعَه في يده، وأزيدَه في الإحسان فليحضُرْ عندي بعد أن يُخَلِّفني بما شاء، ويتوثَّق بما أراد من جهتي وجهتك، وإن خاف الحضور فأنا أُفرِدُ له من بلادي موضعاً آخر، وأُفرِّج له عن الطريق حتى يمضي إليه ويُسلِّم ما بيده من هذه القلاع، وإن شاء أن أُسلِّم إليه طخارستان سلَّمتُها إليه، وليس بعد هذا عندي كلام ولا جواب، فأعلِمِ الرسولَ بهذا، وقل له: إن عاد بغير أَحَدِ هذه الأقسام ضربتُ عنقه.

واتَّفق أنَّ بعض الأمراء توغَّل في شعب تحت القلعة فيه قصرٌ قريبٌ من الباب وفيه تكش سكران، فواقعه، وحماه أصحابُه واستنقذوه، فصعد إلى القلعة، وعاد الرسول، فقيل له: بماذا جئت؟ فقال: بما يرضي السلطان. فبادر النظام، وأخذ بيده، ودخل على السلطان، فقال له: بماذا جئت؟ فقال: الملك العادل يقول: أمَّا القلاع فلا أُسلِّمها، ولكني أُخرِبُها، وأمَّا اللِّقاء فإنني لا أحضر بابك، ولكني أكون على رأس

(١) في (خ): عشيرته، والمثبت من (ب).
(٢) في (خ): على، والمثبت من (ب).
(٣) في (ب): مقايده، والمثبت من (خ).

جبل وأنت على آخر، وبيننا الوادي، فتتحدث ونتعاهد، وتُسلِّم إليَّ بلد هراة، وتُنفذ إلى خواجا بزرك لأقرر معه هذه القواعد، فلستُ بأقلَّ من مسلم بن قريش. فاستشاط السلطانُ غضباً، وأمر بضرب عنق الرسول، فقام نظام الملك وقبَّل الأرض، وسأله فيه، وعزَّ على النظام؛ لأنه بادر به إلى السلطان، وكان في مجلس شُرْبِه، فلمَّا عرف مجيء نظام الملك أمر برفع المجلس احتراماً له، وهذه كانت عادتُه، فلمَّا لم ينفصل أمرٌ عَزَّ على النظام ذلك، وأمر السلطان بأن يُطاف بالرسول العسكر، وأن يُضرب ضرباً مُبرِّحاً، ففعل به ذلك، وعاد إلى صاحبه.

ووصل الأمير منصور بن مروان صاحب ميَّافارقين فنزل على الأمير، فماج، وحمل من الغد خيلاً لا قيمةَ لها، وأشياءَ زرية، فأقامت على سرادق السلطان يوماً لم يلتفِتْ إليها، ورآها فلم تُعجِبْه، وحمل إلى خاتون هديةً قليلةً، ولم تمضِ عليه غيرُ خمسة أيام حتى بعث إلى إياز النظامي يقترض منه ألف دينار، وأمرَ دلَّالةً أعجميةً أن تقترض له على ثلاثة آلاف دينار بسبعة آلاف، وأظهر جماعةٌ تواقيع للسلطان عليه منذ عشر سنين لم يُعطِ أهلَها شيئاً، وطالبوه وأهانوه هواناً كثيراً، فذلَّ، ومع هذا لم يؤثر فيه، وقصد نظام الملك ورمى بنفسه عليه وعلى الحاشية، فلمَّا كثروا على السلطان في أمره قال: لا سبيل إلى إعادة البلاد حتى ينفصل أمر تكش، فقال النظام لمنصور: لا سبيل إلى إعادة ما أخذه ابن جَهير منك، فقال: لو أخذ مني ضيعةً ما رضيتُ.

وورد كتابُ ابنِ جَهير أنه قد استولى على أربعة حصون، وأنَّ أهل ميَّافارقين قد كاتبوا بالتسليم، فحينئذٍ أجاب على أن يكون له ميَّافارقين، وتوقَّف الحال، وتحدَّث في مصاهرة السلطان، وبذل ستين ألف دينار، فقيل له: أنت تستقرض بالربا، فمن أين لك ستون ألف دينار؟ وافتضح وصار ضحكةً بقلَّة عقله، وقد كان خرج من ميَّافارقين بغير خيمةٍ ولا زادٍ ولا درهم.

وفي ذي الحجَّة فُتحت مدينة ملطية، فتحها خالٌ لسليمان بن قُتُلْمِش.

وفيها بنى بدر الجمالي جامع العطَّارين بالإسكندرية، وسببه أن ولداً له عصى عليه، ودخل الإسكندرية فتحصَّن بها، فسار أبوه إليها فنازلها شهراً، وطلب أهلُها الأمان، وفتحوا له الباب، فدخلها، وأخذ ابنَه أسيراً، وبنى هذا الجامع.

وفيها وردت الأخبار من ناحية الغرب بأن الفرنج استولوا على جزيرة الأندلس، وفتكوا بأهلها، وأنَّ صاحب طُلَيطِلة استصرخ بالملثمين واستنجدهم على الفرنج فأنجدوه، ووصلوا إليه في خلقٍ عظيمٍ والتقوا، وكان الفرنج في مئين ألوف، فكُسِروا كسرةً عظيمةً لم ينْجُ منهم إلَّا من سبقَ جواده، وأُخِّر [في][1] أجله، بحيث أُحصيَ القتلى فكانوا عشرين ألفاً جُمِعتْ رؤوسهم، وبُنيَ بها أربعُ منائر للمؤذنين في غاية الارتفاع[2]، وأذَّنَ المسلمون فيها، وعاد عسكر الملثَّمين إلى بلادهم مسرورين ظافرين.

وفيها تُوفِّي

أحمد بن محمد بن دوست[3]

أبو سعد[4] ، الصوفي، النيسابوري، صاحب رياضات ومجاهدات، سافر كثيراً، وحجَّ مرات، وكان يجمع الفقراء ويخرج بهم إلى البادية، وينتقل في القبائل، وكان حسنَ الأخلاق، دائمَ البشر، وتقدم حتى صار شيخَ الصوفية ببغداد، وكان له الجاهُ العظيم، وكان غاب بالبادية مدةً، ثم جاء فنزل على صاحبه أبي بكر الطُّرَيثيثي، وكانت له زاويةٌ صغيرة، فقال له أبو سعد: يا أبا بكر، لو بنيتَ للأصحاب موضعاً أوسع من هذا وأرفع باباً. فقال له: إذا بنيتَ أنت رباطاً للصوفية فاجعل له باباً يدخل فيه جملٌ براكبه[5]، فذهب أبو سعد إلى نيسابور فباع جميع أملاكه، وجاء إلى بغداد، فكتب إلى القائم بأمر الله يلتمس منه خربةً يبني فيها رباطاً، فأذن له، فبنى الرباط، وجمع الصوفية، وأحضر أبا بكر الطُّرَيثيثي، وعمل له دعوةً، وأدخل رجلاً راكباً على جملٍ

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) العبارة في (خ) هكذا: وبُني لها أربع منائر الميادين في غاية! والمثبت من (ب).

(٣) المنتظم ١٦/ ٢٣٥ ، وتنظر بقية المصادر في السير ١٨/ ٤٩١ .

(٤) وقعت كنيته في بعض المصادر: أبو سعيد.

(٥) في (ب): يدخل فيه الجمل بركابه.

من باب الرباط، وقال للطُّرَيثيثي: يا أبا بكر، قد امتثلتُ ما رسمتَ. ثم جاء الغرق سنة سبع وستين فهدم الرباط، فأعاده أحسن[١] ما كان، وقال ولدُه[٢] أبو البركات: لمَّا غرقت بغداد كان الماء يدخل إلى الدور من السطوح، فأخرب الجانبَ الشرقيَّ، فاكترى أبي زورقاً وحُملنا والصوفيةَ فيه، والماءُ يرمي الحيطان، ويحدر الأخشابَ والأبوابَ والجذوعَ إلى البطائح والبحر، فقال أحمد بن زهير الصوفي لوالدي: يا أبا سعد، لو اكتريتَ مَنْ يجمعُ هذه الأخشاب في مكان، فإذا نقص الماء بنيت بها الرباط ثانياً. فقال له أبو سعد: هذا زمانُ تفرقة لا زمانُ جمع، فإذا جاء وقت الجمع جمعنا.

واجتاز أبو سعد بالسوق قبل أن يبني الرباط، فرأى الخبز النقي، وكان من عادة الصوفية أكل الخشكار، فقال: إنْ قُدِّر لي بناء رباط لأشرُطَنَّ في سجلِّه أن لا يطعم الصوفية إلا الخبز النقي، فهم الآن على ذلك.

وكانت وفاتُه ليلة الجمعة في ربيع الآخر، ودُفِنَ بمقبرة باب أبرز قريباً من أبي إسحاق الشيرازي، وقد أناف على السبعين، وأوصى أن يُقام ولدُه مقامَه، وله اثنتا عشرة سنة، ومولده سنة خمس وستين وأربع مئة.

نشأ ببغداد، وسمع الحديث، وزار القدس، ونزل بخانكاه السُّمَيساتي بدمشق وعاد إلى بغداد و[قد][٣] صار شيخَ الشيوخ بها.

وكتب إليه أبو القاسم [عبد الله بن القاسم] بن علي الحريري: [من الطويل]

سلامٌ كأزهارِ الربيعِ نضارةً ... وحُسْناً على شيخِ الشيوخِ الذي صفا
و[لو] لم يَعُقْني الدَّهرُ عن قصدِ رَبْعِهِ ... سعيتُ كما يسعى المُلبِّي إلى الصَّفا
ولكِنْ عداني عنه[٤] دهرٌ مُكَدِّرٌ ... ومَنْ ذا الذي واتاه في دهره الصَّفا

(١) في (ب): مثل، وفي المنتظم: أجود.
(٢) في (خ): لولده، والمثبت من (ب).
(٣) مابين حاصرتين هنا وفي الموضعين الآتيين من (ب).
(٤) في الأصلين (خ) و(ب): عذلني عنده، ولا يستقيم الوزن ولا المعنى، والمثبت من معجم الأدباء ١٦/ ٢٧٣ والأبيات فيه.

عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد[١]

أبو نصر بن الصباغ، الإمام، الشافعي، ولد سنة أربع مئة، وتفقَّه وبرع في الفقه، وصار فقيهَ العراق، وكان يُقدَّم على أبي إسحاق في معرفة المذهب، وصنف الكتُبَ الحِسان؛ منها: «الشامل» و«الكامل» و«تذكرة العالم» و«الطريق السالم».

وولي التدريس بالنظامية قبل أبي إسحاق عشرين يوماً، وكان قد سافر إلى السلطان وأحسن إليه، فلمَّا قدم [بغداد] هرع الناس يهنُّونه بذاك أياماً.

وكانت وفاته في جمادى الأولى، ودُفن بداره بدرب السلولي من الكَرْخ، ثم نُقل إلى باب حرب.

وكان ثقةً ثبتاً صدوقاً [ديِّناً] فاضلاً.

علي بن أحمد بن عبد العزيز[٢]

الأندلسي، رحل وسمع الحديث الكثير، ومن شعره: [من البسيط]

صَيِّرْ فؤادَكَ للمحبوبِ منزلةً ... سَمُّ الخِياطِ مجالٌ للمُحِبَّينِ
ولا تُسامِحْ بغيضاً في معاشَرةٍ ... فقلَّما تسَعُ الدنيا بَغيضينِ[٣]

مسلم بن قُريش بن بدران

أبو البركات، شرف الدولة، أمير بني عقيل، صاحب الموصل والجزيرة وحلب، وزوَّجه السلطان ألب أرسلان أُختَه.

وكان شجاعاً جواداً داهيةً، يحتاج إليه الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء والأعيان، وأولد أختَ السلطان، وخُطِبَ له على المنابر من باب بغداد إلى العواصم

---

(١) المنتظم ١٦/ ٢٣٦-٢٣٧ ، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ٢٩٦-٢٩٧ . وينظر السير ١٨/ ٤٦٤ .

(٢) تاريخ دمشق ٤١/ ٢٢١-٢٢٤ .

(٣) قلت: والبيتان المذكوران لم أقف على من نسبهما لصاحب الترجمة سوى المصنف، وهما لغانم بن الوليد كما في معجم الأدباء ١٦/ ١٦٧-١٦٨ ، والمغرب ١/ ٣١٧ ، ونفح الطيب ٣/ ٢٦٤ وغيرها من المصادر.

والشام، وأقام حاكماً على البلاد نيِّفاً وعشرين سنة، ولمَّا مدحه ابن حَيُّوس بقصيدته التي أولها: [من الكامل]

ما أدركَ الطَّلِباتِ مثلُ مُصمِّمٍ إن أقدمَتْ أعداؤُهُ لم يُحْجِمِ

وقد تقدَّمت الأبيات، فأعطاه الموصل، فأقامت بيده ـ يعني في حكمه ـ ستة أشهر، ومات ولم يدخلها.

ذكر مقتله:

قد ذكرنا استيلاء سليمان بن قُتُلْمِش على أنطاكية، وأنَّ مسلماً خاف منه، فقطع الفرات في خفٍّ من العسكر، فنزل على حلب، ثم توجَّه إلى أنطاكية، فخرج إليه سليمان في التركمان واقتتلوا أياماً، وكان مع مسلم طائفةٌ من التركمان، فمالوا إلى سليمان، وانهزمت العرب، وبقي مسلمٌ في أربع مئة فارس من بني عقيل، فثبتوا معه، وقاتلوا دونه، فصَعِد على عقبة هي آخر أعمال حلب وأول أعمال أنطاكية وقتَ العصر يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر، وكان قد جمع جمعاً من الأرمن من سُمَيْساط، وأخذ من حلب ستَّ مئة رجل من أحداثها، وأطلق لحُبَّق مُقدَّم التركمان الذين كانوا معه مالاً، وكان قد صادقه وصار معه، فمال أصحاب حُبَّق إلى سليمان مستأمنين، وأجفلت بنو كلاب من الميمنة وبنو نمير من الميسرة، وقتل من أحداث حلب نحواً من أربع مئة، وبقي وحده، فانهزم، فأدركوه فقتلوه وغنموا عسكره، وسار بنو عقيل إلى القابوسية، وأخرجوا أخاه إبراهيم بن قريش من القلعة وهو لا يقدر أن يمشي ولا يركب سِمَناً، وكسروا القيد، وأمَّروه عليهم، وكانوا مُجِبِّين له، ومؤثرين لخدمته أكثر من مسلم، ووقع لهم بالإطلاقات والإقطاعات.

وكتب ابن الحنيني الهاشمي[1] الحلبي إلى السلطان يخبره بما جرى، وطلب أن يتقدَّم إليه بتسليم البلد إلى من ينظر فيه، وأغلق الأبواب وحاصره ابن قُتُلْمِش، وقيل: إنهم أجلسوا مكان مسلم ولده بهاء الدولة.

---

(١) في (خ): الشافعي، والمثبت من (ب).

وقال أبو يعلى بن القلانسي: وفي سنة ثمان وسبعين وأربع مئة كان مصاف بين الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش وبين الملك سليمان بن قُتُلْمِش في رابع وعشرين صفر على نهر سفيان، فكُسِرَ عسكرُ قريش وقُتِل، ورحل سليمان نحو حلب محاصراً لها في غرة ربيع الأول، ولم يتهيَّأ له ما أراد، فرحل عنها خامس ربيع الآخر إلى أنطاكية، والأصحُّ أنَّ مسلماً قُتِلَ في هذه السنة، والله أعلم.

السنة الثامنة والسبعون وأربع مئة

فيها في ثالث صفر فتح فخر الدولة بن جَهير آمِد لكثرة الغلاء بها، فإنه بلغ المكوك الحنطة ديناراً، وقالت النصارى: ما نبيعه إلا بأكثر. فثار بهم المسلمون، وقتلوا جماعةً منهم، ونهبوا أموالهم، وكان وزير آمد نصرانيًّا من قِبَل وزير ميَّافارقين، وكان الآخر نصرانيًّا، فهدَّدهم، فأعلنوا بشعار فخر الدولة، وفتحوا له الباب فدخلها، وأحسن إلى أهلها، وجلب إليهم الغلَّات، وأقام ولده زعيم الرؤساء في قصر السلطان، وسار إلى حصار ميَّافارقين، وورد الخبر بمسير أُرْتُق بك من حلوان والجبل، وكانت إقطاعه طالباً الجزيرة والشام، ورجع ابنُ جَهير إلى آمد متحصِّناً بها لخوفه من أُرْتُق بك؛ لأن ابنَ جَهير هو الذي كاتب السلطان فيه، وأنه أطلق مسلماً وأخذ منه المال، فاستوحش أُرْتُقْ بك، وكان قد اتَّفق مع مسلم أنهما يمضيان إلى حلب ويكاتبان المصري وينحازان إليه ويُدخلان تاج الدولة تُتُش معهما في ذلك، وكان مسلمٌ أنفذ عمَّه مقبل بن بدران عند انفلاته من آمد إلى مصر بالانتماء إلى دولتهم، وأن يأخذ لهم العراق والجزيرة والشام، ويلتمس إنفاذَ عسكرٍ إلى الشام، ويعبر هو الفرات ويسير إليهم ويتَّفق معهم، وبعث بدر الجمالي ولدَه وابنَ المغربي[1] وجماعةً مع مقبل إلى الشام، فوصلوا دمشق وأقاموا بها، وبعثوا مقبلاً يشعر مسلماً وأُرْتُق بوصولهم، فوصل حلب، فوجد مسلماً قد قتل قَيِّم آل قرقيسيا، واجتمع بأُرْتُق، فوعده بإفساد التركمان لتلك الدولة، ونقلهم إلى الشام، وأقام أُرْتُق بالجزيرة وقد فَتَّ قتلُ مسلم[2] عضُدَه، وكان أُرْتُق لمَّا سار من خراسان نهب ضياعاً للسلطان، وأنفذ إليه السلطان خِلَعاً وذهباً فلم يقبَلْ منه

(١) تحرفت في (خ) إلى: العربي، والمثبت من (ب).

(٢) بعدها في (خ) زيادة: في.